الفضل

بقلم / الشيخ بسام جرار

الفضل: هو الزيادة، والعرب تقول لما يبقى من الماء في الإناء بعد الشرب فضلة. وعليه تكون الفضلة: ما يبقى من الشيء، وما يزيد عن الاقتصاد والحاجة. فالألفاظ المشتقة من فضل يغلب أن تستخدم في الزيادة الإيجابية. يقول تعالى في سورة النحل:" والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق"؛ واضح أنّ المقصود بالفضل هنا الزيادة في الرزق. ويقول سبحانه في سورة الإسراء:" انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض.."؛ فالتفاوت الإيجابي في خَلْق الناس من أهم أسس التحضّر الإنساني. ويقول سبحانه في سورة الرعد:"... ونُفضّلُ بعضها على بعضٍ في الأُكُل "؛ والمقصود هنا التمايز في أَطعام النباتات، وقيمتها الغذائيّة. ويتفاضل بعضها على بعض، مما يؤدي إلى التنوع الإيجابي.

قد يخلط الناس أحياناً بين مفهوم الخيريّة، ومفهوم الأفضليّة؛ فإذا كانت الأفضليّة تتعلق بزيادة في المال، أو القوة، أو الجمال، أو العقل...، فإنّ الخيريّة تتعلق بزيادة الخير؛ فإذا كان فلان يفضلني بمال، أو قوة، أو عقل.. فليس بالضرورة أن يكون هو خيراً منّي؛ فكم من فقير هو خير من ألف غني، وكم من ضعيف هو خير من ألف قوي. من هنا كان الحكم الربّاني الذي صدر في حق مجتمع الصحابة، رضوان الله عليهم:" كنتم خير أمّة أخرجت للناس"، ولم يقل سبحانه وتعالى:" كنتم أفضل أمّة.."، لأنّ الفضل يحتمل وجوهاً كثيرة، ولا يستلزم الخيريّة إلا إذا كان فضل تقوى. والتفضيل الأخروي لا يستند إلى الفضل الدنيوي، بل يستند إلى الخيريّة في الحياة الدنيا.

يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة:" يا بني إسرائيل اذكروا نعمتيَ التي أنعمتُ عليكم، وأنّي فضلتكم على العالمين". هذه الآية الكريمة هي من الآيات التي أنّبت اليهود، لنكرانهم النعمة، وعدم شكرهم لله، الذي فضّلهم، أي زادهم في

العطاء الدنيوي بالإضافة إلى الكتاب والفرقان. وتُعدِّد الآيات التي جاءت بعد هذه الآية، من سورة البقرة، النّعم التي كانت لبني إسرائيل ولم تكن لغيرهم من الأمم، فاستحقوا بكفرهم النعمة أن تضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأن يبوءوا بغضب من اللّه، بل:" وإذ تأذّنَ ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومُهم سوءَ العذاب". بهذا تتضح بعض أسرار الغضب الربّانيّ النازل باليهود: "غير المغضوب عليهم"؛ فقد كانت خيانتهم كبيرة؛ لاحظ بعض هذه النعم التي ذكرت وعُدّدت بعد قوله تعالى:" يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي...": " وإذ نجّيناكم من آل فرعون..."،" وإذ فرقنا بكم البحر.."، " وإذ واعدنا موسى.."، ".. ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون"، " وظللنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى"، " وإذ قلنا ادخلوا هذه القريةَ فكلوا منها حيث شئتم رغدا.."، " وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب.."، " وإذ قلتم يا موسى لن نصبرَ على طعام واحد..". نعم، هذه النّعم، وغيرها مما ذكر في سورة البقرة وسور أخرى، لم تحصل لأمّة من الأمم، ولو حصلت لغيرهم لكانت من دواعي الشكر والطاعة، ولكنّهم كفروا النعمة، وتمادوا في غيّهم وتنكروا لفضل الخالق سبحانه؛ فكان الحكم العادل، هو ما نصّت عليه الآيات التي ختمت الحديث عن هذه النّعم:"وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب من اللّه..". وهذا ليس لهم فقط، بل لكل خائن لا تزيده النعم إلا ضلالا.

وأخيراً نقول: إذا كانت الآية الكريمة هي من أشدّ الآيات ذمّاً لليهود، ولخيانتهم، فكيف فهمها البعض على أنها آية مدح؟! ولماذا ذهب البعض في تأويلها المذاهب، على الرغم من أنّ صيغتها هي صيغة تقريع؟! يبدو أنّ السبب في ذلك يرجع إلى الخلط بين مفهوم الخيريّة ومفهوم الأفضليّة.